ما الحج، ومن هو الحاج؟

الأسس النفسية والتربوية

الدكتور غلام علي افروز

عندَ الغور في فلسفة وجود القيم الدينية وأسسها النظرية، وكذلك في الواجبات والمحرّمات الشرعية، نتوصلُ إلى الحقيقة التالية، وهي أن خالق عالم الوجود و منظّمه عندما خلق الإنسان الذي هو أشرفُ المخلوقات وخليفة الله على الأرض، سَخَّرَ لَهُ كذلك جميع الإمكانات وهيأ له أساليب تعاليهِ ورشدهِ وفلاحهِ في مُعترك الحياة الدُّنيا، بما يتناسبُ مع الفطرة والطبيعة البشرية.

بعبارة أخرى، في الأيديولوجية الإسلامية والثقافة القرآنية، نرى أن جميع الواجبات والمحرّمات الدينية مبنيّةٌ على أساس الفطرة، والمنطق، والعقل السليم للإنسان، هذا الإنسان الذي يملك مَلكة التعقل وقدرة التمييز والاختيار.

وفي نظرة عامة، نستنتج أن جميع الواجبات والمستحبات الدينية، وكذلك جميع المحرّمات والمكروهات مبنيّةٌ على أساس نظام منطقي وقيمي واضح، بحيث مُنِعَ وحُرِّم كلُ ما هو مُضرٌ لِصحة وسلامة الإنسان وكلُ ما هو مانع لرُشدهِ الفكري والنفسي والاجتماعي، سواءٌ بالفعلِ أو بالقوة، على المدى

القريب أو البعيد، بصورة علانية أو سرّية، فردية أو جماعية... وعلى العكس من ذلك أوجَبَ على كل إنسان بالغ وعاقل كل ما يؤدي إلى تعاليهِ و نموّهِ الجسدي والعقلي والروحي والأخلاقي والاجتماعي، والفرائض الدينية كذلك فُرِضت بطريقة بحيث إن كل انسان يستطيعُ أن ينال ما يطلبهُ من الكمال والفلاح والتوفيق على قدرِ استطاعتِهِ.

مثلاً عند التأمل العميق في الأصول العامة والمعايير الحاكمة على بعض الأمور التي اعتبرت من المحرّمات، مثل تعاطي المشروبات الكحولية ولحم الخنزير والمواد المخدّرة، وكذلك الانحرافات الأخلاقية والسلوكية، مثل الكذب، والغيبة، والتهمة، والسرقة، والتطفيف، والخيانة، والظلم... وأمثالها، نراها هي الأمور بعينها التي تؤثرُ على صحة الإنسان وسلامته، وتُعيقُ تكاملهُ العقلي والروحي[1].

من الناحية الأخرى، نجدُ أن جميع الواجبات والتوصيات الإسلامية أرضية لتكامل الإنسان في حياتهِ الفردية والعائلية والاجتماعية، والعملُ بها يضمنُ للإنسان روحاً سالمة وشخصيةً متكاملة، وكذلك مجتمعاً سالماً ومتطوراً.

ومن جملة هذهِ الواجبات والتوصيات: الصدق، وقول الحق، والعدالة، ومُحاربة الظلم، ونُصرة المظلومين، والعفة والطهارة، والابتعاد عن المضرات، وتآلف القلوب والسعي لإيجاد الصُلح والوئام، وأداء الخُمس والزكاة لغرض

---

(١) تشيرُ نتائج الدراسات التي أُجريت مؤخراً في جامعة لندن بأن تعاطي الكحول والمخدرات حتى ولو بمقدار ضئيل، علاوةً على آثاره المخرّبة والمدمّرة على الأسرة والمجتمع، يؤدي كذلك إلى انقباض الخلايا الدماغية للإنسان، وكذلك لحم الخنزير فإنه يحوي هورمونات تفضي إلى اختلال الحالات الروحية للأفراد، و تُضاعفُ لديهم حالات التوتر والنزاع والمشاكسة والسلوك اللامتعادل.

تأمين احتياجات المعوزين، والإحساس بالمسؤولية، ومتابعة أمور المحرومين والمستضعفين، واحترام الوالدين وتكريم الأبناء، وطلب العلم ومكافحة الجهل والأمية، والتعاون وإبداء المُساعدة... هذهِ الواجبات يعملُ بها كلُ صاحب دراية وفكر يؤمن بضرورة هذهِ الأُمور لحياتِهِ الفردية والاجتماعية.

عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله : «**مَن أصبَحَ ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم**»، وفي حديث آخر: «**الدين هو العقل والعقل هو الدين**».

فالعاقل هو الشخص الذي يبني حياتهِ الفردية و الاجتماعية على أساس المنطق، والحكمة والتطور والتعالي... لربما يكونُ الإنسان صاحب ذكاء مُفرط ولكنّه يتصرفُ في أغلب الأحيان تصرفاً غير منطقي، مثل التدخين لدى المتخصصين في مجال الطب، فهم على الرغم من اطلاعهم على مضاره، لكنهم لا يأبهون بذلك.

إنّ الذكاء وسيلةٌ وأداة، والعقل يحُسّنُ الاستفادةِ من هذا الذكاء، فالإنسان الذي لا يعملُ بما يعتقدهُ ويؤمنُ بهِ لا يُعتبرُ إنساناً عاقلاً.

جاء في كتاب الله الكريم:

﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾[1]. وفي آية اخرى: **﴿أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾**[2].

ومن الواضح جداً أن أسمى وأجمل تعبير لهذهِ القيم الإلهية المتعالية يتجسد و يتبلور في سلوك الموحّدين الأحرار الذين هم على اتصال دائم بخالقهم عن طريق إقامة الصلاة، فعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**مَن يُريدُ أن يتكلم مع الله فليُصل، و مَن يُريدُ الله أن يتكلمَ معهُ فليتلو القرآن**».

الصلاة هي الجواب الأمثل للتعبير عن الشُكر والتقدير للخالق المنّان لأقصى ما يبغيهِ البشر ويسعى للوصول إليه، ألا وهو الازدهار والوصول إلى درجة الكمال.

الصلاة مصفاة الوجود، وتناغم الخالق والمخلوق، والجواب الدائم على الاحتياجات الإنسان الروحية والفطرية، منهجٌ غير مُقيّد بعاملي التاريخ والجغرافية، وفرصةٌ مُتاحة لأي إنسان حر ومُفكر وشكور لكي يقف عند اللزوم وفي أوقات معلومة على منصة المعراج، ويتغنى بنشيد الحرية، ويبوح بمكنونات قلبهِ عن طريق الشكر للخالق الرحمن الرحيم.

أما الصوم، فهو منهجٌ تربوي آخر، يُهيئُ الأرضية للنمو الحيوي والنفسي والاجتماعي المطلوب، وواجبٌ على كل إنسان صالح وسالم وفي أية نقطة في العالم أن يقف في صفوف المسلمين في شهر رمضان المُبارك ويُشاركهم في أداء هذا المنهج العام الذي هو مُعسكر تهذيب النفس، وتكوين الشخصية، وتحطيم القيود والعادات اليومية والنفسية والاجتماعية، وتقوية الإرادة، والاتكال

(١) الصف: ٢.

(٢) البقرة: ٨٠.

على الذات، والسعي للوصول إلى قمة الفلاح.

إنّ المعنى الدقيق للتربية يبدأ من تحطيم العادات، وبتعبير آخر، حتى العادات الحسنة ليست بالحسنة، الصلاة أيضاً يجبُ أن لا تؤدى على أساس العادة والتكرار، بل يفترض أن يكون كل عمل وسلوك مقروناً بالوعي والنية والإرادة.

الصوم منهجٌ يهدفُ إلى ازدهار الفرد وتحوّله، وحركة مُستهدفة ومؤثرة في طريق القضاء على الفقر، وتحقيق العدل، وسلامة المجتمع وتعاليهِ.

لا شك أن عملية جمع نفقات الزكاة والفطر وتوزيعها العادل بين المحتاجين في أي مجتمع من المجتمعات الإسلامية، هي خطوة مؤثرة وإيجابية في طريق مكافحة الفقر وضمان حاجات المسلمين الغذائية لفترة زمنية معينة، ومن الناحية الأخرى تبيّنُ التقارير السنوية التي يقدمها مسؤولو القضاء والشرطة بأن مُعدّل الجرائم والمخالفات الأخلاقية تقلّ عادةً في شهر رمضان بشكل جدير بالملاحظة.

وأخيراً، الصوم هذهِ الفريضة التربوية مثلُها مثلُ الطبيعة مُعرّضة بعد عام من ممارستها وتجربتها إلى التغيير والتحول وإعطاء الثمار، بالضبط كمزارع مُثابر، يحرثُ الأرض في كل عام قبل نثر البذور الجديدة كي يتخلص من الأعشاب التالفة والمخرّبة للزروع، وبهذا تستطيع البذور الجديدة أن تنمو في أرض مناسبة، شهر رمضان المبارك كذلك يخلقُ الأرضية المناسبة الخالية من الآفات المحتملة التي تمنعُ النمو والرُشد المطلوب للإنسان.

و من هذا المنظار، الصوم حاجة طبيعية لتطهير الجسد والروح، وعاملٌ مساعدٌ لنمو الإنسان وتعاليهِ.

أما الحج، هذا المنهج التربوي التهذيبي، الذي نجده ـ لدى مقارنتِهِ مع المناهج التربوية الأخرى مثل الصلاة والصوم ـ مُقيّداً عادةً بعاملي الزمان

والمكان، ولهذا فهو مُتفقٌ مع الصوم والصلاة في إنجازه في زمان معين، ولكنه يختلفُ عنهما في أن مناسكهِ لا يمكنُ أداؤها في أي مكان نختارهُ، بل تؤدى دائماً في منطقة خاصة، وفي أرض مقدّسة، وفي موعد واحد، وفي محيط آمن.

الحج تطهير النفوس في بحر الوجود، ومجابهة الشرك، والدعوة للتوحيد، وكذلك تصفية الوجود، وتطهير الجسد والروح بماء الرحمة الإلهية.

الحج هو التخلص من القيود والتعلقات والأنانيّات، وتجربة الحياة في ظل التوحيد.

الحج أمر واجب ـ بالدرجة الأولى ـ على الأشخاص المستطيعين، بينما الصلاة والصوم، أمران واجبان على كل المؤمنين بالله والسالكين طريق الحق.

جاء في الكتاب الكريم: ﴿**لا يكلّف الله نفساً إلا وُسعها**﴾[1]، فبحسب النظام الإلهي، على كل من باستطاعتهِ حضور مراسم الحج العظيمة وأداء مناسكهِ وتأمين نفقاتهِ، زيارة بيت الله الآمن، والهجرة من النفس الأمّارة والالتحاق بالخالق المنّان.

وفي الواقع، إن الذين يتمتعون بإمكانات مالية واجتماعية أكثر في حياتهم، معرّضون أكثر من غيرهم للانحرافات الاجتماعية والأخلاقية، لهذا إن لم يكن الثراء مقروناً بالتزكية وتهذيب النفس فإنّ بإمكانه أن يكون عاملاً مساعداً على التمرّد والطغيان.

إنّ على الإنسان الثري تكاليف أكثر من غيره، ولا شك أن الشخص الذي يملك نصيباً أوفر من النِعم الإلهية ويتمتع بقدرة بدنية وفكر خلاّق وإمكانات إقتصادية عالية، يجبُ أن يكون لديهِ إحساس بالمسؤولية أكثر من غيره، وأن يسعى دائماً لأداء رسالتهِ الشخصية والاجتماعية عن طريق

(١) البقرة: ٢٨٦ .

تهذيب النفس، وصفاء القلب، واكتساب توفيقات وافرة.

لذا كان الحج واجباً على كل إنسان متمكن، لئلا تكون هذهِ الاستطاعة وهذا التمكن والثراء والمنزلة الاجتماعية سبباً للتباهي والتفاخر والتسلط والتمرّد والطغيان.

الحج منهج شامل للتخلص من جميع الآفات المتعلقة بشخصية الإنسان، وتحصين النفس من وساوس الشيطان، فلو تأملنا في سير مناسك الحج وأعماله وأحكامِه من البداية حتى النهاية، لاستطعنا أن نستنتج بأن الحج هو تصفية النفس من جميع الآفات الروحية والانحرافات الاجتماعية، وهو صياغةٌ للشخصية التي يمكنُ الاعتماد عليها، مصونةً من الفساد، هادئةً ومتواضعة، تتحكمُ بشهواتها النفسانية والمؤثرات المحيطية، متوكلةً على الله، ومُبتعدة عن الطمع والتباهي والتسلّط، وخالصة في عبادتها لله عزّ وجلّ.

كل من يتأمل ويفكر في هذا السفر الإلهي يتولدُ لديه إحساس بأنه يُريدُ أن ينتقل إلى عالم آخر، ولهذا عليهِ التخلّص والتحرّر من القيود الدنيوية، وكذلك من التشويشات والاضطرابات النفسية، من القلق ومن تعلقات الدنيا واضطراباتها، وكذلك الاضطرابات الناجمة عن العلاقات الاجتماعية، والتعامل بين الأفراد، لكي يبلغ أرض التوحيد بقلب آمن ومطمئن، لذا عليهِ أن يطلب إبراء ذمتهِ من أهل بيته وأقاربهِ ومعارفِهِ وجيرانِهِ وزملائِهِ وغيرهم، ويطلبُ المعذرة ممن أساءَ لهم يوماً ما أو اغتابهم، و بهذا يكون قد أزالَ غبار الحقد والضغينة.

علاوةً على هذا، يجبُ على كل شخص عازم على الحج أن يسدّد جميع ديونه الشرعية والقانونية، ويرسم لنفسهِ صورةً واضحةً عن وضعه المالي وتسوية حساباتهِ وتعهداتهِ الأخلاقية والاجتماعية، ويقدمها لعائلته أو لوصيّه، لأن سفر الحج لا يكونُ مقبولاً إذا لم يدرس الحاج الماضي والحاضر،

وإذا كان غافلاً عن الحلال والحرام.

كلمة الحاج ليست صفةً يَتحلى بها بسهولة أي مُسافر لبيت الله، وإنّما تتطلب أن يتحلّى هذا اللقب بجميع الفضائل الأخلاقية والقيم الإنسانية، ويتنزّه عن جميع الرذائل الأخلاقية، ويتحرّر من الأهواء النفسية.

وأنت أيّها الإنسان المسلم إذا أردت أن تنال لقب الحاج، هذا المقام الشامخ، يجبُ أن تتحمّل المشقّات، وأن تخرج من صفة الذات، وتتوحّد وتخلص لله الواحد الأحد، وأن تصفّي قلبك من الشوائب قُربةً إلى الله، وتفرّغه من كل ما هو باطلٌ وتستبدلهُ ببذور حب الله عزّ وجلّ، وتُطهّر جسدك وروحك بماء الرحمة الإلهية، وتبدّل لباسك المميز (الذي يميّزك عن غيرك) بلباس الإحرام الأبيض اللون الذي لا يميّز شخصاً عن آخر.

إن جانباً من الهوية الفردية للإنسان يتعيّن من خلال الملابس، فعندما يلبسُ فريقٌ من الناس اللباس الموحّد مثل مرضى المستشفيات، الجنود، الحجاج المكفنين بلباس الإحرام، عند ذاك تنهدمُ الفوارق وتزولُ، ولهذا السبب نجدُ أن البعض من الأثرياء الراقدين في المستشفيات يفضّلون أن يلبسوا ملابسهم الشخصية في المستشفى حتى يتميزوا عن غيرهم.

يجب أن يكون الحاج مقاوماً للنزعات والميول النفسية، ولديهِ إيمان وعزمٌ وتوكل راسخ، و نيّة خالصة، ودوافع مقدّسة، ولا يغفل لحظةً عن السعي في مجالات الصدق والصفاء والمروءة والإيثار.

جاء في كتاب الله الكريم: ﴿**وأن ليس للإنسان إلى ما سعى**﴾[1]، ومن آياته أيضاً: ﴿**بَل الإنسان على نفسه بصيرة**﴾[2].

---

(١) النجم: ٣٩.

(٢) القيامة: ١٤.

وجميع علماء النفس والأطباء النفسانيين يدركون هذهِ الحقيقة، وهي أن أهم الآفات الأخلاقية والانحرافات السلوكية على مدى الأزمنة وفي كل مكان في العالم، سببه العجز عن التغلّب على الأهواء والميول النفسية.

الخالق المنّان الذي خلق الإنسان على شاكلته، عليمٌ بجميع القوانين التي تحكم النفوس والخصوصيات والحاجات الفطرية للإنسان، وهو يريد أن يبتلي الإنسان المتمكّن ويمتحنه.

بصورة عامة، على كل من يُريد أن يصبحَ حاجّاً أن يعمل بالنصائح التالية:

١ ـ تجنّب التكبّر والتبرّج: في حال الإحرام لا يجوز النظر في المرآة أو التعطّر أو لبس الخواتم.

٢ ـ الابتعاد عن الكسل و عدم الاهتمام بالغير: لا يجوز وضع شيء على الرأس، وتغطيتهِ وأنت فى حال الإحرام.

٣ ـ اجتناب إيذاء النفس وإيذاء الآخرين: قتل الحشرات، وإراقة أي دم حرام.

٤ ـ التحرّر من الأفكار العدوانية والمخرّبة والمشاكسة: لا تجوز المجادلة، وحمل السلاح بكل أنواعهِ، وكذلك قلع الأشجار، وقتل الحيوانات.

٥ ـ الابتعاد عن أنواع المباشرة والأهواء الجنسية: لا يجوز ممارسة الأعمال الجنسية.

٦ ـ الابتعاد عن التفاخر والمباهاة والتعالي.

٧ ـ الاحتراز عن البذاءات والإهانات والإساءة للآخرين.

لأن بروز هذه الصفات ـ سواء في الحياة الفردية أو الاجتماعية ـ من الآفات الأساسية المعيقة لتطوّر الإنسان والمضرة بشخصيته، والحاج هو من يستطيع أن يجتاز باقتدار تلك العقبات، و يصل إلى أسمى المراحل، ألا وهي

مرحلة التضحية بأعزّ ما لديهِ.

التضحية مرحلةٌ شامخة من مراحل الحج العظيمة، والآن وأنت ترغب في أن تكون حاجّاً وتنال مقام نبي الله إبراهيم عليه السلام، عليك أن تتّحد في صف المنادين الحقيقيين لعبارة: «لا إله إلا الله»، و أن تتفوّه من سويداء قلبك بكلمة: لبيك، يجبُ عليك أن تُضحي بإسماعيلك كما ضحى به إبراهيم عليه السلام ، وبهذا تكون قد أفلحتَ في تصفية النفس، والغلبة على الأهواء والانفعالات النفسية، وصولاً إلى صقل الجسد والروح، والخلوص والتوحيد.

أعزّ ما كان يمتلكهُ إبراهيم عليه السلام بعد عُمر من الانتظار وقرن من الشقاء وتحمل الصعاب، هو ولد عزيز، وشاب جميل الطلعةِ والسيرة، وفي لحظة اختبار صعبة اقتضى الأمر أن يجتث صِلاتهِ و جذورهِ بأعزّ ما يملك، حيث أتى النداء يقول: يا إبراهيم لقد انتصرت، فضحِّ بقربان بدلاً عن إسماعيل.

ضع في طَبَق الإخلاص كل ما لديك: رصيدك، أولادك، زوجك، مقامك، ماء وجهك، شُغلك، شُهرتك، أطماعك، جَشعك... والآن وأنت تُريدُ أن تصبح حاجاً وتصل إلى أعزّ منزلة بين المسلمين وتنال العزّة الإسلامية، فكّر بإسماعيل خالصاً ومخلصاً فتأمل.

نعم، ضحِّ بإسماعيلك في مسلخ العشق والتضحية، وعُد إلى بلدك وأهلك منصوراً كالمصطفين من عباد الله، بقلب مطمئن وآمن، والآن قد أصبحت ذا سلوك كأنك ولِدت مرةً أخرى، يخفقُ قلبك من أجل الله فقط لا غير، لا تقول غير الحق، ولا تبحث عن غير الحق، ولا تخطو خطوةً في غير طريق الحق، يرغبُ كل الناس رجالاً ونساءاً، صغاراً وكباراً أن يشاهدوا فيك القيم الإسلامية والقدوة المتعالية للشخصية الإسلامية، في سلوكك الفردي والاجتماعي.

الحاج هو مظهرُ المقاومة أمام طُغيان النفس، وهو تفسيرٌ للصدق

والصواب، و تجسيدٌ للمغفرة والتضحية، وتبلورٌ للمحبة والمنطق، ورمزٌ للصفاء والمروءة، وكما جاء في القرآن الكريم: ﴿**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً**﴾[1].

(١) الفرقان: ٦٣.